واقعيّة الوحي
بيان كيفيّة نزول الوحي على النبيِّ حسب ملاَّصدرا

مهدي منصوري
باحث أكاديم وفي الفلسفة الإسلامية. جامعة باقر العلوم

أحمد واعظي
أستاذ في جامعة باقر العلوم وعضو الهيئة العلميّة

ملخّص إجماليّ:

نشأت خلافات شتَّى بين المتكلِّمين والمفسِّرين والفلاسفة لجهة بيان كيفيَّة نزول الوحي. ومن جملة البيانات والتَّوضيحات التي قُدِّمت، سوف نعرض إلى ما أورده الحكيم الإلهيُّ صدر الدين الشيرازي في الحكمة المتعالية من آراء، خصوصاً تلك التي استعان فيها بالأسلوب البرهانيِّ إلى جانب النُّصوص الدينيَّة والعرفانيَّة. ويمكن القول أنَّ الشيرازي المعروف بـ ملاَّصدرا أخذ بهذه الوجهة ليؤسِّس منهجه الميتافيزيقيَّ الخاصَّ، والذي سيتمكَّن بوساطته من تقديم نظام معرفيٍّ يطابق ظواهر النُّصوص الدّينيَّة.

لقد عَدَّد ملاَّ صدرا خمس مراحل لنزول الوحي. وهي مراحل يمكن وضعها ضمن المندرجات التالية: الوحي من دون وساطة، الوحي العقليُّ، الوحي المثاليُّ، الوحي الحسّيُّ والطبيعيُّ للرُّسول، والوحي الحسِّيُّ والطبيعيُّ للنَّاس. أما نزول المَلَك على النبيِّ (ص)، من وجهة نظره، فلا يُقصد به تجافي المَلَك؛ بل يحمل معنى التجلّي الذي يترافق مع ارتقاء النبيِّ في معارج الألوهية. وفي هذا المضمار وجِّهت إلى رؤية صاحب الحكمة المتعالية إشكالات عديدة، سنحاول في هذا البحث الإجابة عنها بعد توضيح مراحل النزول ومعناه.

* * *

مفردات مفتاحيَّة: الوحي، كيفيَّة نزول الوحي، الملائكة، الوحي العقليُّ، الوحي المثاليُّ، الوحي الحسِّيُّ والطبيعيُّ، الملاَّ صدرا.

علوم المبدأ
العدد السادس - 1445هـ - صيف 2023م

مقدِّمة:

ثمَّة آراء متعدِّدة في كيفيَّة نزول الوحي، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: أصحاب الرؤية التَّشبيهيَّة الذين يُشبِّهون الملائكة بالأجسام، وأنَّ النزول مكانيٌّ، وهو رأي العديد من المتكلِّمين والمفسِّرين؛ حيث تُدرَج العديد من الأقوال ضمنه.

المجموعة الثانية: أصحاب الرؤية التَّنزيهيَّة؛ حيث لا يكون نزول الوحي عن طريق مشاهدة جسم المَلَك أو سماع صوته؛ بل عن طريق الارتباط الرُّوحيِّ به.

المجموعة الثالثة: أصحاب الرؤية المعتدلة، وهي رؤية صدر المتألّهين التي سنوضحها في طيَّات المقال[1].

التوضيح التفصيليُّ لكيفيَّة نزول الوحي:

إنَّ لنزول الوحي مراحل، وهذا لا يعني أنَّ كلَّ أشكال الوحي تتضمَّن جميع المراحل، بل من الممكن أن تتضمَّن البعض منها.

- المرحلة الأولى: الوحي من دون وساطة:

يعتقد ملاَّصدرا بضرورة الإيمان بالكتب السماويَّة، وكذلك بضرورة العلم بكيفيَّة نزول هذه الكتب، ويُشدِّد على أهمِّيَّة ما كتبه العلماء والمفسِّرون في هذا المجال[2]. ومن البيِّن بحسب صدرا- أنَّ لبعض الأنبياء، ومن جملتهم نبيُّ الإسلام، مقامًا يسمح له بتلقِّي الوحي مباشرة من الله تعالى من دون وساطة الملك العقليّ[3]. وقد عبرَّ القرآن الكريم عن هذا النوع من الوحي بقوله: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ**﴾[4]-[5].

يعتقد ملاَّصدرا أنَّ التعليم على أنواع ثلاثة: التعليم البشريُّ، التعليم الملكيُّ، والتعليم الإلهيُّ. التعليم البشريُّ للناس، والتعليم الملكيُّ للرُّسل؛ حيث يتمثَّل الملك للرُّسل ليعلِّمهم الكتاب، والتعليم الإلهيُّ للخواصِّ من الأولياء والأنبياء، وهو الذي يحصل من دون الوساطة الخلقيَّة. وعندما تتحدَّث الآيات الشريفة، فتقول: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**

---

*ـ المصدر: فصليَّة «الحكمة الإسلاميَّة» العلميَّة – البحثيَّة، العام التاسع، العدد الثاني، شتاء 1401 هـ.ش.
تعريب: محمد الحاج.

[1]- م. ن، ص296-297؛ الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة، ج7، ص26-27؛ م. ن، ص136-135.
[2]- تفسير القرآن الكريم، صدر المتألّهين، ج1، ص295.
[3]- تفسير القرآن الكريم، صدر المتألّهين، ج6، ص276؛ م. ن، ج3، ص414؛ الحكمة المتعالية، ج7، ص27.
[4]- سورة النجم، الآيات 8-10.
[5]- تفسير القرآن الكريم، صدر المتألّهين، ج1، ص302؛ أسرار الآيات، ص13.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[1]؛ فإنَّ كلمة ﴿يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ دالَّة على التعليم الإلهيِّ بوساطة الوحي المباشر، وعبارة ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ دالَّة على التعليم الملكيِّ، وعبارة ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ تشير إلى التعليم البشريّ[2].

- المرحلة الثانية: امتلاك العقل المستفاد والملكوت الأعلى (المرتبة العقليَّة وملكوت الوحي الأعلى):

في هذه المرحلة من الوحي، تحصل المشاهدة ويتوثَّق الارتباط العقليُّ بروح القدس. ينشأ هذا الارتباط على أثر التجرُّد والتخلُّص من التعلُّقات الجسمانيَّة. إنَّ الارتباط العقليَّ بعالم العقل وذات روح القدس المجرَّدة، ومشاهدة العلوم والحصول عليها وغيرها من الأحوال هو أعلى من الارتباط المثاليِّ بتمثُّل روح القدس في عالم الخيال المنفصل. لذلك؛ جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾[3]-[4].

إنَّ أيًّا من القوى الحسِّيَّة والخياليَّة والوهميَّة لا دخالة لها في الارتباط والمشاهدة بين النبيِّ والروح القدس، وهذا يعني أنّ التلقّي العقليَّ لا تشوبه شائبة؛ بل هو تلقّي معصوم بالكامل. وأفضل أجزاء النبوَّة، هو هذا الوحي في المرتبة العقليَّة[5].

وهكذا، فإنَّ النبيَّ من ناحية الاتِّحاد والفعليَّة العقليَّة، يمتلك كمال القوَّة العاقلة، بالإضافة إلى الصّيرورة الملكيَّة، ومن الناحية الروحيَّة يمتلك الملكوت الأعلى[6]. والحاصل أنَّ المعرفة العقليَّة المتأتِّية من الوحي والكلام الإلهيِّ هي معرفة تامَّة يُعبَّر عنها بالعقل البسيط[7]. والتعقُّل في هذه المرحلة مرتبط بالروح الربَّاني الخاصِّ بالأنبياء[8]. في المقابل، الفلاسفة محرومون من هذه المرتبة العقليَّة ولا يمكنهم الوصول إليها؛ ذلك لأنَّ معرفتهم العقليَّة التي تحصل من القوَّة النظريَّة، ليست معرفة تامَّة ولا يمكن إطلاق عنوان الحقيقة عليها[9]. وأمَّا الأنبياء، وبسبب امتلاكهم موهبة التجرُّد التامِّ من الجهات التعقُّليَّة والصيرورة العقليّة بتبعها، فهم يمتلكون القابليَّة للوحي والمعرفة التامّة، خلافًا للمعرفة الحاصلة من القوَّة العاقلة الفاقدة للتجرُّد التامِّ؛ لأنَّ النفس الإنسانيَّة الناطقة كانت

---

[1]- سورة الشورى، الآية 51.
[2]- أسرار الآيات، ص19 و54؛ المظاهر الإلهيّة، ص63؛ تفسير القرآن الكريم، ج7، ص164.
[3]- سورة النجم، الآيات 5-7.
[4]- تفسير القرآن الكريم، ج1، ص301؛ م. ن، ج6، ص268-277؛ إيقاظ النائمين، ص34.
[5]- م. ن، ج6، ص281.
[6]- تفسير القرآن الكريم، ج6، ص277-278؛ م. ن، ج3، ص344؛ م. ن، ج7، ص153-154؛ الشواهد الربوبيّة، ج1، ص344؛ مجموعة الرسائل التسعة، ص284؛ المبدأ والمعاد، ص268.
[7]- أسرار الآيات، ص13.
[8]- المبدأ والمعاد، ص252-253.
[9]- الشواهد الربوبيّة، ج1، ص244؛ المبدأ والمعاد، ص252-253.

في البداية عقلاً بالقوَّة، ثمَّ خرجت من القوَّة إلى الفعل بسببيَّة العقل الفعَّال، إلَّا أنَّها لم تصل إلى مرتبة التجرُّد التامّ[1].

يصل الفيلسوف والعارف بالتدريج إلى التجرُّد والمعرفة العقليَّة بالعمل والاكتساب عن طريق الرياضة وتهذيب النفس ورفع الموانع، وكذلك التعقُّل الفكريُّ وإقامة البراهين العقليَّة التي تؤدِّي دور التضرُّع إلى حضرة العقل الفعَّال[2].

وساطة العقل الفعَّال في الوحي:

إنَّ الملك العقليَّ الوساطة في الوحي، هو العقل الفعَّال والذي عبَّرت عنه الشريعة بروح القدس وجبرائيل والروح الأمين والمعلِّم شديد القوى[3]. وعليه، فإنَّ الارتباط بالملك العقليِّ هو ارتباط بالذّات والوجود النفسيِّ للملك، وليس بوجوده الإضافيِّ؛ وما ذاك إلَّا لأنَّ الارتباط الذي يحصل ليس مع الجهة المتجلّية وصورها ومظهرها؛ بل مع ذات الملك التي هي عين الجهة العقليَّة[4].

لقد أشكل البعض على وساطة العقل الفعَّال في الوحي، وحجَّته في ذلك، أنَّ التفسير الفلسفيَّ للوحي يبتني على نظريَّة الأفلاك التسعة في هيئة بطليموس، وكذلك على العقول العشرة؛ لهذا نعرف لماذا أطلق على العقل العاشر: العقل الفعَّال، وهو الذي يعلِّم أنبياء الله الوحي. وقد أُبطلت نظريَّة الأفلاك التسعة. ولم يُعطَ الدليل على أنَّ العقل العاشر هو العقل الفعَّال. وهذا يعني أنَّ النظريَّة لا تقوم على أساس ثابت[5].

في الجواب على هذا الإشكال وما يتعلَّق بهيئة بطليموس، أمكن القول أنَّ ذاك البحث ليس بحثًا فلسفيًّا؛ بل هو من الأصول الموضوعة المقتبسة من بحث الهيئة. لذلك؛ بدا الفلاسفة غير مصرّين على ضرورة تطبيق المسألة على الأفلاك. وإذا صوَّر علم الهيئة العالم بهذا النحو، فالفلاسفة عمدوا إلى تطبيق كلّيَّاته الوجوديَّة على هذه المسألة؛ حيث إنَّ إبطال الهيئة لا يعني إبطال الكلّيَّات الفلسفيَّة؛ بل هو تغيُّر محلِّ التطبيق. كما أنَّ وجود العقل الفعَّال في الرؤية الفلسفيَّة غير متوقِّف على المقدَّسات البطليموسيَّة للكون، فإذا أُبطلت المقدِّمات، صار إثبات العقل الفعَّال غير ممكن. ولكن ثمَّة العديد من الأدلَّة التي تثبته، حيث طبَّقه الفلاسفة على جبرائيل، واعتبروا أنَّه هو نفسه حامل الوحي من خلال التأويل الوجوديّ. بعبارة أخرى، فإنّ الخصائص التي ذكروها للعقل الفعَّال

[1]- المبدأ والمعاد، ص269-270.

[2]- تفسير القرآن الكريم، ج5، ص289؛ م. ن، ج6، ص276.

[3]- تفسير القرآن الكريم، ج1، ص148 و297؛ م. ن، ج2، ص248؛ المبدأ والمعاد، ص269؛ م. ن، ج6، ص276-278؛ م. ن، ج5، ص288؛ الحكمة المتعالية، ج7، ص26-27؛ إيقاظ النائمين، ص35-36.

[4]- تفسير القرآن الكريم، ج6، ص278؛ م. ن، ج7، ص115؛ إيقاظ النائمين، ص35-36؛ الحكمة المتعالية، ج7، ص26؛ الشواهد الربوبيّة، ج1، ص351.

[5]- رسالة القرآن، ناصر مكارم الشيرازي، ج7، ص328؛ الوحي والنبوّة في ظلّ القرآن، محمّد تقي شريعتي، ص45-47.

تطابق بشكل دقيق الخصائص التي ذكرتها الشريعة لجبرائيل[1].

ولقد أشكلوا أيضًا بأنَّ "ما يظهر من آيات القرآن بوضوح أنَّ الوحي نوع العلاقة بالله تعالى، وليس بالعقل الفعَّال، فهو ينزل على قلب النبيِّ عن طريق الملك صاحب الوجود الحقيقيِّ، وليس عن طريق الملك المولود في الخيال أو لتأثير الحسِّ المشترك عند النبيِّ. كما أنَّ الصوت الذي يسمعه النبيُّ عند الوحي هو صوت حقيقيٌّ، وليس من تأثيرات الخيال أو الحسِّ المشترك"[2].

في الجواب على الإشكال، يجب القول:

أوّلًا: المقصود من العقل الفعَّال عند الفلاسفة هو جبرائيل في لسان الشريعة؛ لذلك ينبغي ألَّا يُفهم منه ما يوحي بعدم التدخُّل الإلهيِّ في الوحي.

ثانيًا: إنَّ تدخُّل العقل الفعَّال في عمليَّة الوحي لا تتنافى مع إلهيَّته؛ فالعلماء يعتقدون بدور لجبرائيل في الوحي النازل على الأنبياء. وفي العديد من الحالات، كان الوحي في النبوَّة يحصل بوساطته. وعلى هذا الأساس، فإنَّ وجود وساطة في عمليَّة الوحي، لا يتنافى مع حقيقته التي هي نوع من العلاقة بالله تعالى. وإذا اعتبرناه نوعًا من العلاقة بالله، فهذا لا يعني بالضرورة علاقة مباشرة من دون وساطة الملك. لذلك؛ فالعقل الفعَّال في البحث الوجوديِّ للفلاسفة هو نفسه جبرائيل، ووساطته تعني وساطة جبرائيل، وهذا لا يتعارض مع النصوص الدينيَّة.

الإشكال الآخر على ملَّا صدرا مفاده التالي: "إذا كان اتِّصال نفس النبيِّ في الوحي مع العقل الفعَّال، أو ما يُعبرَّ عنه في الشريعة بجبرائيل شرطًا، عند ذلك يجب ألَّا نقبل أيَّ وحيٍ لا وساطة فيه، فيكون دور جبرائيل فيه ضروريًّا. هذا مع العلم أنَّ ملَّاصدرا التزم القول بالوحي من دون وساطة بين النبيِّ والله تعالى. وعليه، يصبح الإشكال أكثر قوَّة عندما نقرأ صاحب الحكمة المتعالية في بعض كتابته، وخصوصًا عند تفسيره الآية 51 من سورة الشورى. ففي هذه الآية يعتبر أن القسم الأوّل في ما عُبّر عنه بكلمة ﴿**إِلَّا وَحْيًا**﴾ هو الوحي من دون وساطة، واعتبر أنّ الكلام ﴿**مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ هو الوحي الملكي"[3]. بعبارة أخرى، فإنَّ ما تفيد به آيات القرآن الكريم والعديد من الروايات، هو أنَّ الوحي الإلهيَّ في بعض الحالات، يحصل من دون وساطة الملك. طبعًا، تبيَّن الآيات الشريفة أنَّ نزولها التدريجيَّ كان يجري بوساطة جبرائيل. أمَّا في ما يتعلَّق بتبيين القرآن وتفصيل أحكام الشريعة، فكان يتمُّ في بعض الحالات من دون وساطة الملك[4].

---

[1]- المبدأ والمعاد، ص269.

[2]- رسالة القرآن، ج7، ص329.

[3]- أسرار الآيات، ص19؛ تفسير القرآن الكريم، ج2، ص301.

[4]- معرفة الوحي، علي رباني الكلبايكاني، ص178.

بإزاء هذا الإشكال، يجب القول أنَّ ملاَّصدرا كان ملتفتًا إلى مسألة حصول الوحي تارة من دون وساطة، وتارة أخرى عندما يقول إنَّ الوحي يكون دائمًا مع الوساطة. وهذا عائد إلى اعتباره أنَّ الحقائق العقليَّة مشتركة بين النبيِّ والوليِّ، والإلهام يشترك مع الوحي من الجهة العقليَّة. لكنَّ معيار الوحي عنده امتلاك جهتَي التنزُّل والتمثُّل باعتبار ضرورة التبليغ والعرض، هو خلاف الإلهام الذي يفتقد جهة التمثُّل، وتاليًا يفتقد جهة التبليغ. ففي الإلهام لا وجود لقضيَّة التبليغ. في هذا الصدد، يعتقد ملاَّصدرا أنَّ وجود جهة التمثُّل هي في الوحي؛ ولذلك فإنَّ الكشف الصوريَّ يشتمل على الكشف المعنويْ. وفي الإلهام؛ حيث لا يجري الحديث عن جهة التمثُّل، فالكشف فيه معنويٌّ فقط[1].

المرحلة الثالثة: التمثُّل للقوَّة الخياليَّة (المرتبة الخياليَّة والملكوت الأوسط في الوحي):

تمكَّن النبيُّ؛ وبسبب امتلاكه قوَّة وكمالاً في القوَّة العاقلة، من الارتباط بمصدر المكاشفات العقليَّة، ولهذا كان يتلقَّى الحقائق والمعارف العقليَّة من الملائكة العقليَّة. من جهة أخرى، وبسبب امتلاكه قوَّة وكمال القوَّة الخياليَّة والمتخيِّلة، فقد كانت نفس النبيِّ وبعد الارتباط بعالم المعقولات وتلقّيها عن طريق العقل المستفاد، تتنزَّل وتدرك هذه الحقائق العقليَّة على شكل صوريٍّ وخياليٍّ في عالم المثال المنفصل بوساطة قوَّة الخيال[2]. لذلك؛ يصح القول أنَّه يمكن بالقوَّة الخياليَّة مشاهدة الأشخاص المثاليّين والغيبيّين، وتلقِّي الأخبار الجزئيَّة منهم، والاطِّلاع على الأحداث الماضية والمستقبليَّة من خلال الارتباط بالملائكة المثاليّين[3]. وهذه الحالة خاصَّة بالأنبياء، والأولياء لا نصيب لهم فيها[4].

فالنبيُّ في المرحلة الخياليَّة لا تتمثَّل له صور لا حقيقة لها؛ بل يشاهد الوجود الحقيقيَّ للمَلَك ومنشأ الوحي في عالم الأمر والملكوت العقليْ. وهو يرى وجوده المثاليَّ في مرتبة الخيال، فيشاهد حقيقته ويسمع الوحي. وفي هذه المرحلة تكون نفس النبيِّ في عالم الألواح القدريَّة، حتّى لو سلك عقله في مرحلة العقول العالية ونفذ إليها[5].

ينسبُ البعضُ إلى الفلاسفة اعتقادهم بأنَّ الوحي هو عبارة عن حقائق غير لغويَّة يظهرها الله تعالى أو المَلَك للنبيْ. وهي حقائق مستقلَّة عن الُّلغات؛ أي أنَّها معارف محضة يضفي عليها النبيُّ ثوب الُّلغة. ويحصل هذا النوع من الانتقال إمَّا عن طريق الحقيقة عينها، أو عن طريق العلائم

---

[1]- إيقاظ النائمين، ص147.
[2]- تفسير القرآن الكريم، ج6، ص278؛ الشواهد الربوبيّة، ص341-342.
[3]- تفسير القرآن الكريم، ج6، ص277.
[4]- الشواهد الربوبيّة، ج1، ص342؛ تفسير القرآن الكريم، ج6، ص278.
[5]- إيقاظ النائمين، ص34-35؛ الحكمة المتعالية، ج7، ص26-27؛ تفسير القرآن الكريم، ج6، ص278.

والرُّموز التي تدلُّ على الحقائق التي يريدها المرسِل. لذلك؛ يكون للوحي أركان ثلاثة عبارة عن: مرسِل الوحي، ومتلقّي الوحي، والرِّسالة[1].

تحدَّث البعض أيضًا عن أنَّ "رؤية الفلاسفة، وعلى فرض صحَّة مبانيهم الفلسفيَّة في خصوص عالم العقول والنفوس والمثال، أنَّها رؤية تحمل العديد من الإشكالات من الناحية العقليَّة. وقد ذكرت الروايات أنَّ الأنبياء يتلقّون المعرفة الوحيانيَّة الأعمَّ من الكليَّة والجزئيَّة من عالم الغيب، ذلك بأنَّهم يلعبون دور القابل وليس الفاعل. أمَّا كلامهم عن الدور الفاعليِّ لنفس الرسول في إعطاء القالب اللغويِّ للمعرفة الوحيانيَّة الكليَّة والتمثُّل البشريِّ للملك، فليس مقبولاً؛ لأنَّ ما يستفاد من الآيات والروايات أنَّ التمثُّل البشريَّ للملائكة، وكذلك فعل ملائكة الوحي، هو بإذن الله تعالى. وأمَّا دور النبيِّ، فهو مشاهدة ذاك المثال البشريِّ وليس صناعته... كما لا يمكن قبول فكرة إعطاء القالب اللُّغويِّ للوحي بشكلها العامِّ؛ لأنَّ ما يُفهم من الآيات والروايات أنَّ التوراة قد نزلت على النبيِّ موسى على شكل كلمات مكتوبة على الألواح"[2].

إنَّ هذا الإشكال غير وارد على ما تنطوي عليه منظومة ملَّاصدرا، لا سيما إذا أردنا عدم دراسته في خصوص وروده على غيره-؛ فقد اتَّضح ممَّا بيَّنه أنَّه يعترف بمراتب للوحي والنبيِّ والعالم والمَلَك؛ حيث يكون لكلِّ مرتبة من النبوَّة وحيٌ يتناسب مع النشأة الخاصَّة بها. وبهذه المثابة لن يكون صحيحًا الادِّعاء بأنَّ ارتباط النبيِّ محدَّدٌ بالمرتبة العقليَّة للملك فقط؛ بل أيضًا بمرتبة المَلَك المثاليَّة، وهي المرتبة النازلة للحقيقة العقليَّة. لذلك؛ وتبعًا لهذه، فالنبيُّ يتلقَّى الوحي الجزئيَّ اللُّغويَّ من الملك في مرتبة من العالم، والذي هو عالم المثال، وفي مرتبة نازلة أخرى يتلقَّاه في عالم محسوس، فيسمع ويرى الوحي على صورة ألفاظ وأصوات ماديَّة.

المرحلة الرابعة: التنزُّل إلى مرحلة الإحساس:

لم يتوقَّف ملَّاصدرا عند حدود مشاهدة عالم المثال، وإنما يعتقد أنَّ هذه الصور المثاليَّة تتنزَّل أيضًا إلى مستوى حواسِّ النبيِّ. فالنبيُّ يشاهد الصورة المثاليَّة لمَلَك الوحي، ويسمع منه الألفاظ الوحيانيَّة، وبعد هذه المشاهدة التي تحصل بوساطة القوَّة الخياليَّة -وهي من قوى النبيِّ الباطنيَّة- ليست هذه الصور تتجلَّى في حواسِّه الظاهريَّة. وانطلاقًا من رؤيته حول تجرُّد الصور المتخيَّلة يعتقد صدرا أنَّ وجود المادَّة ليس شرطًا في الرؤية. فالرؤية ليست شيئًا سوى أن تشاهد النفس الصور المتخيَّلة. إذًا، نفس النبيِّ ترتبط بداية بعالم العقل حيث تتلقَّى المعقولات عن طريق العقل المستفاد، ثمَّ تتنزَّل فتدرك عين هذه الصور في عالم المثال بوساطة المتخيّلة، ثمَّ وبعد النزول إلى

[1]- الوحي والأفعال القوليّة، عليرضا قائمي نيا، ج16، ص40-41.
[2]- معرفة الوحي، ص220-221.

علوم المبدأ
العدد السادس - 1445هـ - صيف 2023م

عالم الدنيا، يشاهد النبيّ ويسمع عين هذه الصور في العالم المحسوس[1].

الحقيقة، أنَّ النفس هي التي تنزل من العالم الأعلى إلى العالم الأوسط، ومن ثمَّ إلى الأدنى. وبالتالي فهي التي تشاهد مَلَك الوحي بما يتناسب مع كلِّ عالم، وهي التي تسمع الوحي والكلام الإلهيِّ. وممَّا لا شكَّ فيه، أنَّ ما يشاهده الأولياء والأنبياء من الصور، لا يمكن أن يكون منطبعًا في القوى الإنسانيَّة، ذلك لأنَّها تُشاهد في غير هذا العالم المادّيِّ، وهي حقيقة تعرض على الحسِّ المشترك والخيال؛ إلَّا أنَّها تكون من الأعلى لا من الأسفل، ومن المادَّة الخارجيَّة، وهذا هو الإبصار[2]. هنا، لا ينبغي أن نظنَّ بأنَّ صورة قد حضرت في الحسِّ المشترك؛ بل الحقيقة الخارجيَّة هي التي حضرت في القوَّة الخياليَّة والحسِّ المشترك بشكل حضوريٍّ[3].

الخلاصة، أنَّ النبيَّ إذا كان يتلقَّى الوحي في عالم الطبيعة بحواسِّه الظاهرة (بأيِّ صورة كانت)، فذلك وحي إلهيٌّ على وجه الحقيقة، سواء حصل ذلك على شكل رؤية حسّيَّة (كرؤية مَلَك الوحي على شكل دحية الكلبي)، أم على شكل سماع صلصلة الجرس، أو سماع كلام ملك الوحي؛ كما سمع الرَّسول الأكرم (ص) في بداية البعثة سورة العلق من جبرائيل، وكما سُمع كلام الله تعالى من النبيِّ موسى عن طريق شجرة طور سيناء[4]. إذًا، مشاهدة جبرائيل بالبصر الحسيِّ وسماع كلامه بالسَّماع الحسيِّ، هو حقيقة الوحي وليس من باب المجاز[5].

الوحي الحسّيُّ على حسِّ النبيّ:

بما أنَّ حواسَّ النبيّ الظاهريَّة تابعة لحواسِّه الباطنيَّة، فهو مثلما يقابل الملائكة في المرتبة العقليَّة والمثاليَّة، وتتنزَّل على عقله وخياله، فإنَّها تتنزَّل من بعد ذلك إلى مرحلة أدنى لترى عيناه وتسمعت أذناه أنَّ كلًّا من العين والأذن الظاهريَّة للنبيِّ هي التي ترى وتسمع؛ ولذلك عجز الآخرون عن الرؤية والسَّماع. وليس صحيحًا أنَّ ملك الوحي الذي يظهر على شكل وجود مادّيٍّ وجسمانيٍّ، يمكن لأيِّ إنسان سليم البصر أن يراه. النبيُّ في المراحل كافَّة، هو وحده الذي يرى ويسمع، إلَّا من أراد هو له ذلك[6]. فلو كان في ذاك المجلس شخصًا آخر غير أبي ذرٍّ لما شاهد.

أمَّا لماذا كان الوحي الحسيُّ مختصًّا بالنبيِّ؛ فذلك لأنَّه يحصل من الداخل، لا من الخارج؛ ليراه كلُّ إنسان سالم الحواسّ. فالنبيُّ يسمع ما لا يسمعه الآخرون. الملائكة تخرج من داخله، كما

---

[1]- إيقاظ النائمين، ص36؛ الحكمة المتعالية، ج7، ص27.
[2]- المبدأ والمعاد، ص475-476.
[3]- تفسير القرآن الكريم، ج1، ص300؛ إيقاظ النائمين، ص35-36؛ الحكمة المتعالية، ج7، ص25-26.
[4]- أسرار الآيات، ص53-54؛ المظاهر الإلهيّة، ص63.
[5]- الحكمة المتعالية، ج7، ص26-27؛ تفسير القرآن الكريم، ج1، ص299-300؛ إيقاظ النائمين، ص35.
[6]- الحكمة المتعالية، ج7، ص36؛ إيقاظ النائمين، ص38-39.

في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1]. وبناءً على الآيات الشريفة، فالقلب هو الذي يدرك المعنى أوّلًا، ثمّ من بعد ذلك يسمع اللّفظ باللسان العربيِّ المبين. وهذا يدحض القول بأنَّ سببًا خارجيًّا أدّى إلى وجود موج يسمعه الإنسان[2]. فالوحي يتنزَّل من أعلى المراتب إلى أدناها، فيصل إلى مستوى الطبيعة، ثمَّ ينزل من عالم المثال إلى عالم الحسِّ الظاهريِّ، ومن عالم الحسِّ الظاهريِّ إلى الأعضاء والأدوات. ولذا يتَّخذ الوحي مساره من الأعلى لا من الأدنى، ومن الداخل لا من الخارج. هنا قد يقول قائلٌ بأنَّ مَلَكَ الوحي موجود ماديٌّ خارجيٌّ في نشأة الطبيعة، وأنَّ شخصًا لا يراه سوى المعصوم فقط؛ غير أنَّ هذا القول إنَّما يعني السفسطة في المحسوسات؛ أي أنَّ هناك موجودًا ماديًّا وأنَّ الحواسَّ سليمة، إلَّا أنَّ الذي يراه شخص واحد فقط، بينما الآخرون يعجزون عن رؤيته؛ بما يعني عدم الثقة بالحسّ، مع العلم، أنَّ الثقة بالحسِّ هي بمقداره وطبيعته. ولكن عندما يقال إنَّه يتنزَّل من الأعلى إلى الأدنى، عند ذلك يمكن دفع أيِّ محذور[3]. وهكذا، فإن الوحي يتنزَّل من طور العقل إلى طور المثال، ومنها إلى طور الحسِّ، ثمَّ إلى الخارج. فإذا حصل في الخارج على شكل موج، فهو موج حاصل من الداخل لا من الخارج. وهنا، لا محذور على مستوى الأثر الداخليِّ في البدن، سواء حصل ذلك أثناء الرؤيا أم غير الرؤية؛ حيث يحصل للبدن حالات كالتعرُّق، والحرارة، والبرودة وأمثالها. لذلك؛ فقد تترك القضيَّة العلميَّة أثرها في البدن. وليس صحيحًا القول أنَّها لا تتنزَّل إن لم تصل إلى حدود الحسِّ المشترك، فقد تتنزَّل تارةً إلى أدنى المراتب، إلى مستوى الخارج؛ حيث تكون مفهومة عند الجميع، فهي تصل إليه. وقد يحصل موج في الفضاء الخارجيِّ، فيتخيَّل الشخص سماعه من الخارج، إلّا أنّه قد سمع من الداخل. إذًا، التنزّل إلى الفضاء الخارجيّ وإلى السمع، لا يدلّ على وجود دافع وسبب خارجيٌّ.

انطلاقًا من تطابق العوالم، باعتبار النظام الحاكم وامتلاك قوى النبيِّ كافّة للفعل، يقتضي الأمر تأثير القوَّة النظريَّة عند ارتباطها بملكوت العالم، فيشاهد في قواه الأمور التي شاهدها في تلك العوالم. وبناءً على تطابق العالم، فالوحي في المرتبة الأدنى تابع للوحي في المرتبة الأعلى، والأدنى هي المرتبة الأعلى التي تنزَّلت إلى الأدنى. لذلك؛ كانت الألفاظ تابعة لتلك المعاني، والمَلَكُ في المرتبة الأدنى تابع للمَلَكِ في المرتبة الأعلى، وهي تجلٍّ له. لذلك؛ فإنَّ الجواهر العقليَّة التي تفيض على النبيِّ بالعارف، كانت تظهر على شكل ملك يتكلَّم ويتجلَّى أمام عينيه وأذنيه، مثلما أنَّ جسد الإنسان في مرحلته الدنيا تابع لنفسه في المرتبة الأعلى؛ فبدن النبيِّ تابع لروحه[4].

---

[1]- سورة الشعراء، الآيات 153-155.

[2]- الحكمة المتعالية، ج7، ص27؛ تفسير القرآن الكريم، ج1، ص299؛ شرح أصول الكافي، ج2، ص439.

[3]- الحكمة المتعالية، ج7، ص27.

[4]- الحكمة المتعالية، ج8، ص127-128؛ تفسير القرآن الكريم، ج6، ص278؛ ج7، ص115.

علوم المبدأ
العدد السادس - 1445هـ - صيف 2023م

إبطال فرضيَّة خارجيَّة الملك في عالم الحسِّ والطبيعة:

الفرض الآخر الممكن، هو القول بأنَّ المَلَكَ يتحقَّق في الخارج على هيئة البشر، وكما يدرك البشر بوساطة الحواسِّ الظاهريَّة ما هو في الخارج، كذلك الأنبياء يدركون بحواسِّهم الظاهريَّة في مرحلة الوحي الطبيعيِّ. وهنا يُطرح السؤال التالي: هل يتمكَّن الجميع من مشاهدة ذاك الملك المتمثِّل وسماعه؟

في الجواب، وانطلاقًا من كون الوحي أمر خارق للعادة، أنَّ المتلقّي فقط هو الذي يسمع الكلام. ولأنَّ التعليم الوحيانيَّ خارقٌ للعادة، فإنَّ عدم سماع صوت المَلَكَ من جانب المحيطين بالنبيِّ، لا يسقط الاعتبار عن المعرفة الحسّيَّة في الظروف العاديَّة. ولو كان الوحي يحصل بأسلوب اعتياديٍّ، وكان النبيُّ هو الذي يسمع من دون سواه، عند ذلك يمكن الحديث عن سقوط اعتبار المعرفة الحسّيَّة. والصحيح، أنَّ للأعمال الخارقة للعادة أحكامًا خاصَّة، ولا يجب مقارنتها مع الأعمال الاعتياديَّة. لذلك؛ كان خروج بعير من قلب الجبل، لا يسقط نظام التوالد والتناسل عند الحيوانات[1]. ويعتقد القائلون بهذه الفرضيَّة، أنَّ هناك العديد من الآيات والروايات التي تشير إليه[2].

والحقيقة، أنَّ هذه الفرضيَّة باطلة؛ لأنَّ تجسُّد الحقيقة المجرَّدة محال، ومن لوازمها أن يصبح الملك إنسانًا. فالمَلَكُ المتجسِّد، إمَّا أن يكون في تلك الحال: مَلَكُ أو إنسان؛ فإذا كان مَلَكًا، فلا معنى لتعلُّقه بجسم ماديٍّ؛ لأنَّ من لوازم المَلَكيَّة التجرُّد. وإذا تعلَّق، فقد خرج عن المَلَكيَّة وأصبح ماديًّا؛ أي أصبح تجرُّده ناقصًا. ففي عالم الطبيعة تتعلَّق الأرواح بالأجساد، وليس صحيحًا حصول عينيَّة بين الجسد والروح[3]. أما إذا كان إنسانًا، فعند ذلك لا يصحُّ القول أنَّه مَلَكٌ متجسِّد؛ لأنَّه إنسان وليس أيَّ حقيقة أخرى. لذلك؛ تصرُّ هذه النظريَّة على عدم تبدُّل المَلَك من حقيقة المَلَكيَّة إلى الإنسانيَّة. أمَّا في التمثُّل البشريِّ، فيتحقَّق المَلَكُ بهيكل بشريٍّ في الخارج، فيتحدَّث بلسان البشر وينجز أفعال البشر بأعضائهم وأدواتهم الفيزيائيَّة. يبدو أنَّه، وبالاستناد إلى الآيات والروايات التي توضح أنّ النبيّ يشاهد "الملك" ويسمعه، لا يبدو من الممكن الاستنتاج بأنّ الرؤية والسماع الحسّيّ والطبيعيّ من الخارج إلى الداخل، ومن الظاهر إلى الباطن؛ بل الرؤية والسَّماع أعمُّ من ذلك؛ أي أنَّهما تتضمَّنان الجانبَين. كما لا يمكن استنتاج الأخصِّ من الأعمِّ[4]. وعليه، يجب تفسير الرؤية والسَّماع على أساس أنَّهما من الداخل والباطن إلى الظاهر والخارج، انطلاقًا من دليل الاستحالة الذي يلي تجسُّد الملك؛ بل يمكن القول أنَّ الآيات القرآنيَّة تؤيِّد هذا الأمر. وقد

---

[1]- معرفة الوحي، ص181 و230.
[2]- المصدر نفسه، ص230.
[3]- الحكمة المتعالية، ج9، ص338.
[4]- تفسير القرآن الكريم، ج3، ص460.

جاء في القرآن الكريم على لسان الكافرين: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ* وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1].

الواضح أنَّ المَلَكَ إذا تجسَّد؛ للزم الأمر خلق إنسان لا خلق مَلَك. وانطلاقًا من هذه الاستحالة العقليَّة، فقد يتبادر إلى الذهن من الآيات التي تتحدَّث عن تجسُّد المَلَك، تعيُّنًا في الرؤية من الباطن إلى الظاهر. والدليل على ذلك، أنَّ البشر العاديّين وحتّى العاصين، تحصل لهم الرؤية من الباطن إلى الظاهر، وكلُّ ذلك بإذن أولياء الله. فقد تمكَّن قوم لوط من مشاهدة الملائكة، بإذنه[2].

التطابق وعدمه بين مراحل الوحي الثلاث والإنشاء:

لقد أشكل البعض على ملاَّ صدرا عبر السؤال التالي: "كيف يمكن تصوير المراحل الثلاث العقليَّة والمثاليَّة والحسِّيَّة في الآيات التي جاءت على شكل الأمر والنهي (الإنشائيَّة)، والتي لا تحتوى بُعد الحكاية؟ والبديهيُّ، أنَّ لهذه المراحل والمراتب معنى ومفهوم في الحقائق والأمور التي لها ما بإزاء خارجيٍّ، وليس الأمور الإنشائيَّة التي ليس لها ما بإزاء في عالم الخارج. مع اعتقادنا، بأنَّ هذه الإنشائيَّات مجعولة من قبل الله تعالى"[3].

في الجواب على هذا الإشكال نقول إنَّ تقرُّر الإنشاء في كلِّ موطن يتناسب معه. لا يجب الاعتقاد بأنَّه إذا لم يكن له ما بإزاء في عالم الطبيعة، فلا يجب أن يمتلك أصولاً تكوينيَّة. هو يكون إنشاءً إذا كان الخطاب فيه غير المخاطب، وأمَّا إذا كان الخطاب عين المخاطب، فلا يكون إنشاءً. لذلك؛ كانت حقيقته في مراتب العالم العالية هي عين الإنشاء، ولا يلزم أن يكون له ما بإزاء خارجيٌّ.

يتضمَّن الإنشاء في عالم الملكوت خاصّيَّة وحدة الخطاب والمخاطب، بينما يتضمَّن التعدُّد في عالم المُلك. لذلك؛ راحت تلك الحقيقة في عالم الوحدة تُظهِرُ نفسها على شكل الإنشاء في تنزُّلها للعالم. وبعبارة أخرى، كما لا يمكن أن يكون لله تعالى جسم في عالم التكوين، فإنَّ الجسم يظهر نتيجة تنزُّل الوجود إلى جهة النّقص والضعف. والإنشاء يتحقَّق في الفصل بين الحقيقة والمخاطب؛ حيث لا وجود لهذه الحالة في عالم الوحدة. وتظهر الحقيقة بهذا الشكل في تنزُّل الوجود وعالم الوحدة. أمَّا النتيجة المترتِّبة على هذه القاعدة فهي التالية:

أوَّلًا: إنَّ للإنشاء حقيقة ليست بحاجة إلى أن يكون لها ما بإزاء.

---

[1]- سورة الأنعام، الآيتان 8-9.

[2]- إيقاظ النائمين، ص38-39؛ الحكمة المتعالية، ج7، ص36.

[3]- مدخل إلى المسائل الجديدة في علم الكلام، جعفر السبحاني، ج2، ص28؛ نظريّة الوحي الفلسفيّة من وجهة نظر الفارابي وملاّ صدرا، محمّد جعفري، ص324.

ثانيًا: إنَّ الإنشاء من جهة الوحدة، هو عين حقيقة الوجود التي تظهر نفسها على شكل الإنشاء في تنزّلها. لذلك؛ لا يقتضي أن يظهر على شكل إنشاء الوجود؛ بل إنَّ تقرُّره تابع للعالم الموجود فيه؛ أي أنَّه قد يكون له تقرُّر عقليٌّ ومثاليٌّ ومادّيٌّ.

التطابق وعدم التطابق بين المراحل الثلاث والأحداث الدنيويَّة:

وجَّه البعض نقدًا آخر لملاَّ صدرا ماده ما يلي: "كيف يمكن رسم المراحل الثلاث العقليَّة والمثاليَّة والحسّيَّة، في ما يتعلَّق بالأحداث الطبيعيَّة والتاريخيَّة والاجتماعيَّة، من قبيل جدال أهل الكتاب والمشركين وعَبَدة الأصنام مع الرَّسول، والحقائق والاتِّهامات والافتراءات التي كان يوجِّهها أعداء الرَّسول له؟ والحقيقة، -حسب المنتقدين- أنَّ ترتيب الوحي في هذه الأقسام الثلاثة لا معنى له"[1].

الجواب على هذا النقد، أنَّ عالم الوحدة هو عالم الجمع، بحيث تحضر المراتب الدنيا في المراتب العليا. ولذا لا يمكن أن تكون حقيقة ما في عالم الطبيعة والمثال في ما هي غير موجودة في عالم العقل، أو أن لا تكون ناشئة منه.

إنَّ المسائل التي تحصل في الدنيا وتتعلَّق بعالم الطبيعة- وهي تلك التي أشار إليها القرآن- لا تعني أنَّها لا تمتلك حقيقة عقليَّة، أو أن لا تكون موردًا للوحي. ولكن؛ ولأنَّها ذات حضور جمعيٍّ عقلانيٍّ، يمكنها الاتِّصال بالوحي العقليّ.

يقول الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾[2]. وجاء في آيات أخرى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾[3]، وهذا الكتاب المكنون هو الذي يقول: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾[4]. وأيَّدت الآيات الشريفة الوجود البسيط للقرآن في العالم الأعلى وأُمِّ الكتاب، ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[5]. ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[6]. وتحدَّثت في أسباب النزول والأحداث التاريخيَّة والجزئيَّة.

يؤكِّد الفلاسفة وجود مرتبة أخرى للوحي غير المرتبة العقليَّة، وهي المرتبة المثاليَّة باعتبارها المرحلة السفلى أو النازلة من المرتبة العقليَّة. لذلك؛ أمكن القول بالوجود المثاليِّ لكلِّ الأحداث الطبيعيَّة والتاريخيَّة، كما أمكن القول تلقاء ذلك، أن يتسنَّى للرَّسول الاطِّلاع على تلك الحقائق بشكل مثاليٍّ بسبب من ارتباطه بالعالم المثال.

---

[1]- مدخل إلى المسائل الجديدة في علم الكلام، ج2، ص28.
[2]- سورة الحجر، الآية 21.
[3]- سورة الواقعة، الآيات 77-79.
[4]- سورة يس، الآية 12.
[5]- سورة الزخرف، الآية 43.
[6]- سورة هود، الآية 1.

- المرحلة الخامسة: التنزُّل إلى مستوى سمع وبصر الأشخاص العاديّين:

لا بدَّ من القول أنَّ الوحي الإلهيَّ الذي يصل إلى الأنبياء عبر الملائكة، ليس هو الحلقة الأخيرة والنهائيَّة، بل إنَّ النبيَّ كالمَلَك، هو حلقة من حلقات عبور الوحي. وبعدئذٍ يقوم بإبلاغ الناس ما أوحي إليه. في هذا الصدد، يعتقد ملاَّ صدرا أنَّ النبيَّ سلسلة من سلاسل عبور كلام الله وكتابه. وكما أنَّ الكلام الإلهيَّ وكتاب الله عبور في سلاسل متَّصلة وصلت إلى النبيِّ، فإنَّ معطيات الوحي تنتقل عبر سلسلة من الحلقات منه إلى الأشخاص الآخرين. فما يسمعه الإنسان على لسانه هو نهاية الوحي والكلام الإلهيِّ وكتابه. ثمَّ يستمرُّ الوحي الإلهيُّ بتدفُّقه حتّى يصل إلى سائر الناس العاديين. وعندما يتلقَّى المؤمن الوحي من رسول الله (ص)، فإنَّ ما بين شفَتَي الرَّسول وسماع المخاطب هو تتمَّة الوحي الحقِّ وكلام الله وكتابه.

هنا يستحضر ملاَّ صدرا الآية الشريفة مرَّة أخرى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ**﴾[1]، فيعتبر أنَّ عبارة ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ**﴾ مطلقة؛ فالله تعالى يتكلَّم مع البشر، سواء كان رسولاً أم غير رسول، وكيفيَّة كلام الله على نحو "المنفصلة مانعة الخلوّ"، فكلُّ بشر يسمع كلام الله، لا يخرج عن إحدى الطرق الثلاث؛ إمَّا أن يكون من دون وساطة، أو من وراء حجاب، أو من خلال رسول، والرَّسول أعمُّ من الملك أو النبيِّ البشريِّ. ثمَّ إنَّ ما يبلِّغه الرَّسول الإنسانيُّ للبشر صادق، كما هو حال الرَّسول (الملك): ﴿**فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ**﴾[2].

معنى نزول الملائكة:

لا يُقصد من نزول الملائكة تجافيها؛ بمعنى إذا قلنا إنَّ الملائكة نزلت، فهذا لا يعني أنَّها تركت موطنها الأصليَّ واتَّجهت نحو عالم الطبيعة. هنا الحديث عن حقيقة واحدة تُنسب إلى الملائكة، والتي يُعبَّر عنها بالتنزُّل والتجلّي، وتنسب أيضًا إلى أنفس الأنبياء والأولياء؛ حيث يصدق مفهوم الارتقاء حولها، فيقال إنَّها ترقَّت. فالأنبياء يترقُّون من جهة، والملائكة تتنزَّل من جهة أخرى. وإذن، فإنَّ إنزال ونزول الوحي بوساطة الملائكة، إنما هو عبارة عن الارتباط بين النبيِّ والحقائق المَلَكيَّة في مختلف المراتب. والحقيقة، أنَّ نزول المَلَكِ على أثر السفر من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، هو عين خروج النبيِّ من الغيب إلى الظاهر، ولهذا فهو يرتبط في كلِّ مرتبة وجوديَّة بالملائكة[3].

ولقد انصرف البعض ليُشكِل على ملاَّ صدرا أنَّه، بناءً على نظريَّته، في كلِّ وحي صعود ونزول،

---

[1]- سورة الشورى، الآية 51.

[2]- الحكمة المتعالية، ج7، ص309؛ الشواهد الربوبيّة، ج1، ص349؛ المبدأ والمعاد، ص484؛ أسرار الآيات، ص19 و53؛ تفسير القرآن الكريم، ج4، ص335.

[3]- الحكمة المتعالية، ج7، ص27؛ ج8، ص126؛ إيقاظ النائمين، ص36.

علوم المبدأ
العدد السادس - 1445هـ - صيف 2023م

ولكن انطلاقًا من المضامين الدينيَّة، هناك نزول فقط، ونحن غير مطَّلعين على البُعد الآخر. ولكن من وجهة نظره، لا يمكن إنكار قوس الوحي الصعوديِّ؛ فمن دونه لا يمكن بيان نزوله. وطبقاً لتقريره، فإنَّ على الرَّسول الانقطاع عن العالم الأدنى قبل نزول الوحي؛ وما ذاك إلَّا ليتمكَّن من السير الصعوديِّ حتى ينزل الوحي من بعد ذلك في قوس النزول، فيتنزَّل في مشاعره وقواه. وهذا ما لا يمكن فهمه من النصوص القرآنيَّة والروائيَّة. وحسب هذا البعض، فقد أشارت الروايات إلى أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وآله كان يتلقَّى الوحي وهو جالس مع الأصحاب والناس، فكان ينزل عليه من دون مقدِّمات، وكأنَّنا أمام نموذج حكميٍّ، وكأنَّ للرَّسول حالة متوقَّعة وتمهيديَّة هي التي يعبرَّ عنها بقوس الصعود. فالنبيُّ موسى عليه السلام كان يبحث عن ملاذ لعياله، فشاهد شجرة أمامه، وقد خرجت منها النار من دون أن تحترق، وفي هذا الحال، نزل الوحي عليه وكلَّم الله. فكيف يمكن الحديث في هذا النموذج عن قوسين[1]؟

في الجواب يبدو أنَّ المستشكل في هذا المحلِّ، ظنَّ أنَّ النبيَّ يعيش حالة ضعف وجوديٍّ فكان بحاجة إلى العزلة؛ لتحصل له حالة الانقطاع، وتاليًا؛ ليصبح صاحب استعداد للوحي. والحقيقة، أنَّ الرَّسول (ص) واصلٌ إلى مقام "لا يشغله شأن عن شأن". ففي الوقت الذي يكون في الدنيا مع الناس هو على ارتباط بملكوت العالم يتلقَّى الوحي. والنبيُّ يعيش في السفر الرابع، وهو مع الناس في السير الحقّانيّ. فالسير الصعوديُّ في الوحي لا يعني التخلُّص من الحُجُب وانتظار الوحي، ذلك بأنَّه مستقرٌّ في العالم الآخر؛ ولوجود الجذبة التي حصلت له، فهو يتلقَّى الوحي ويقبله. وإذا كشفت الحقائق للأنبياء في هذا العالم، فسيكون ذلك بوساطة غلبة سلطان الآخرة على قلوبهم. من أجل هذا كان بإمكانهم تحرير مشاعرهم وحواسِّهم بالموت الإراديِّ والاستقرار في الحياة الأخرويَّة[2].

أمَّا الحديث عن قوس الصعود في الوحي، فهو بسبب استعداد القابليَّات عند النبيِّ، إذ بها يتمكَّن من تلقّي ما يتناسب مع مراتب العالم. ثمَّ إن وجود هذه القابليَّة التي تتَّسع العالم، هو وجودٌ محيطٌ بكلِّ الجوانب فيه؛ لذلك فهو قادر على ضبط الظاهر والباطن والغيب والشهادة. بل الغيب شهادة لهم؛ لأنَّهم استطاعوا التخلُّص من القيود البدنيَّة.

لقد وصل الأنبياء إلى مقام لا يشغلهم شأنٌ عن شأن بسبب قوَّة نفوسهم وعلوِّ منزلتهم، وهم في الذات والفعل، كما هي مبادئ العالم العالية. وعليه، فإنَّ شهودهم الباطنيَّ للعالم لا يوجب الانقطاع عن ظاهره، فهم مع وجودهم في الدنيا ينتفعون من الغيب. إنَّ كلَّ إنسان يقطع تعلُّقه

[1]- نظريَّة الوحي الفلسفيّة من وجهة نظر الفارابي والملاّ صدرا، ص322.
[2]- المبدأ والمعاد، ص422.

بالبدن اختيارًا أو اضطرارًا يمكن مشاهدة الأمور المناسبة له[1].

في النموذج الحكميِّ، لا يجب الاعتقاد بحصول حالة متوقَّعة للرَّسول في ما يختصُّ بقوس الصعود، ولا ينبغي الحديث عن قوس الصعود وعدم القدرة على الجمع بين الدنيا والانقطاع عنها. فالرَّسول الذي كان في ملكوت العالم موجود أيضًا في ملكه؛ حيث لا يمنع أحدهما الآخر. إلى ذلك، فالرَّسول لا يعلم مراتب العالم أثناء السير الصعوديِّ؛ بل أثناء العودة والنزول. لذلك؛ فهو على ارتباط لمّيٍّ بالعالم وليس إنيًّا. أمّا نزول الوحي في هذه الدنيا وإدارة الحياة الدنيويَّة فهي تعود إلى مسألة حاكميَّة الآخرة على قلوب الأنبياء وللقوَّة الموجودة في باطنهم[2].

لقد حاول البعض تقديم تسويغ لعقيدة ملاَّ صدرا في هذا الشأن، ليرى أنَّ صاحب الحكمة المتعالية، بكونه في موقع الدفاع، اعتبر أنَّ نموذج القوسين أفضل أنواع الوحي، وهذا يعني أنَّه لا يعتقد بهذا التوضيح في أنحاء الوحي كافَّة. وهو لا يعتقد بهذا النموذج في الوحي الأوَّل الذي نزل على الأنبياء. ثمَّ يضيف هؤلاء أنَّ الجواب المقدَّم غير مقنع أيضًا؛ لأنَّه يتضمَّن إشكاليّن:

ألف- إن ملاَّصدرا هذا النموذج المختصُّ بأفضل مراتب الوحي، لم يوضح كيف يمكن تبيينه في باقي المراتب؟ وفي ما استقصيناه لم يظهر أنَّه وضع نموذجًا آخر لمراتب الوحي الأخرى.

ب- إذا كان القوسان مختصَّين بأفضل أنواع الوحي، فكيف يكون الأمر في العديد من حالات الوحي الأخرى، باستثناء البرهة الأولى للرِّسالة والنبوَّة، حتّى عندما كان النبيُّ في أعلى حالات الانقطاع، حيث شاهدنا قوسًا واحدًا فقط؟ وبعبارة أخرى، فإنَّ النصوص الدينيَّة لا تشير إلى هذا التفكيك[3].

في الجواب على الإشكال الأوّل نقول: لقد بيَّن ملاَّ صدرا موارد الوحي الأخرى، واعتبر أنَّ أحد معايير الوحي هي وساطة المَلَك[4]، ووساطة المَلَك وحيٌ. لذلك؛ كان الوحي بوساطة المَلَكِ العقليِّ تارةً، وتارةً أخرى بوساطة الملك المثاليِّ والطبيعيِّ. وأفضل أنواع الوحي هو الوحي باللسان إلى جانب الوحي العقليِّ. ولكن، إذا لم يكن الوحي باللِّسان موجودًا، فهو قسمٌ من الوحي وليس أفضله[5].

في الجواب على الإشكال الثاني نسأل: هل يمكن أن يكون الوحي قوسًا واحدًا؟ عندما يجري

[1]- المصدر نفسه، ص428.

[2]- أسرار الآيات، ص231؛ الحكمة المتعالية، ج7، ص43؛ م. ن، ص178، 179، 204؛ مجموعة رسائل الملاّ صدرا الفلسفيّة، ص242، 249؛ تفسير القرآن الكريم، ج1، ص255؛ ج3، ص411؛ ج4، ص303؛ ج6، ص20، 79، 246؛ ج7، ص18، 226، 398؛ إيقاظ النائمين، ص650، 683، 147.

[3]- نظريّة الوحي الفلسفيّة من وجهة نظر الفارابي والملاّ صدرا، ص323.

[4]- إيقاظ النائمين، ص147.

[5]- تفسير القرآن الكريم، ج1، ص300.

علوم المبدأ
العدد السادس - 1445هـ - صيف 2023م

الحديث عن الاستعداد والقابليَّة اللذين يشتملان الجذبة الإلهيَّة، فذلك يحتِّم الحديث عن قوس الصعود للرَّسول الذي يربطه بأعلى مراتب العالم. لذلك؛ لا يمكن تصوُّر حالة من الوحي ليس فيها قوس صعود، ففي كلِّ نزول صعود وارتقاء للنبيِّ، ولا يمكن أن يكون هناك نزول من دون صعود.

من جملة الإشكالات الأخرى التي وُجِّهت إلى ملاَّصدرا، أنَّ الحقائق والمعارف الوحيانيَّة تتنزَّل من العالم الأعلى إلى ما دونه. لذلك؛ كانت عبارات "الإنزال" و"التنزيل"، وكذلك "تنزُّل الملائكة والروح الأمين"، وهي وإنْ كانت لا تعني نزول التجافي، إلَّا أنَّها ليست ذات صلة بصعود ونزول الرسول؛ خصوصًا أنَّ النصوص الدينيَّة تشير إلى أنَّ نزول جبرائيل أو الملائكة الآخرين كانت طبق مراسم خاصَّة. فإذا أراد ملاَّ صدرا تطبيق آرائه الخاصَّة (ارتقاء وتنزُّل النبيِّ وليس المعارف) على الآيات والروايات، وَجَبَ عليه حمل العبارات الدينيَّة على أنَّها مجاز. وبذلك تصبح نظريّته صحيحة إذا أيَّدتها القرائن اللَّفظيَّة المتّصلة والمنفصلة، وهي قرائن غير موجودة. لذلك؛ يبقى أمامه الاعتقاد بثبات نفس النبيِّ وانتقال المعارف من الأعلى إلى الأدنى. وهذا ما حاول السبزواريُّ توجيهه وتبريره في حاشيته على الأسفار[1].

حيال هذا الإشكال، ثمَّة ملاحظات عدَّة أبرزها:

أوّلًا: أنَّ مسألة ارتقاء النبيِّ وردت في العديد من الآيات. فعندما يتحدَّث القرآن الكريم عن شرط الطهارة للوصول إلى الكتاب الإلهيِّ، فهذا يعني أنَّ وجود شخص يحمل حيثيَّات الطهارة هذه هي التي تتناسب والجهة العقليَّة التي مكَّنته من الوصول إلى القرآن الكريم، كما هو في الكتاب المكنون: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾[2].

ثانيًا: لو لم تصل سعته الوجوديَّة إلى العقل لما أمكنه إدراك الحقيقة العقليَّة. قد يقال إنَّ هذا في غير الوحي. والجواب: ألم تعرض حقيقة القرآن بالوحي العقليِّ بوساطة الملك؟ فإذا عرضت حقيقة القرآن بالوحي العقليِّ، فمن الطبيعيِّ أن يحصل الارتقاء؛ لأنَّ الآية الشريفة وضعت شرطًا مطلقًا وهو الطهارة، فإذا حصلت، تحقّقت السعة في حقيقة الإنسان، والتي تكون على مستوى عالم العقل. وكذلك، جاء أنَّ القرآن حقيقة لدنيَّة، وهي حقيقة تُلقى من ناحية الحكيم العليم ويتلقَّاها الرَّسول: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾[3]. والقرآن اللّدنيُّ الذي هو في أمِّ الكتاب؛ لذلك كان العلوُّ الوجوديّ. ولا بُدَّ من أن يكون للنبيّ وجود عالٍ ليتلقَّى الحقيقة اللّدنيّة. فما لم يرتقِ النبيّ لا ينزل الوحي عليه.

---

[1]- الحكمة المتعالية، ج7، ص28.
[2]- سورة الواقعة، الآيات 77-79.
[3]- سورة النمل، الآية 6.

جاء في سورة النجم: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ**﴾[1]. وهذا يعني أنَّه اقترب؛ لا بل أصبح في نهاية القرب التي لا قرب بعدها. وهذا يعني تحقُّق علوِّ المرتبة الوجوديَّة. والنبيُّ الذي يتلقَّى الوحي في مراتبه وتنزُّله، يقتضي أن يكون ارتقاؤه في مقابله.

قصارى القول: إنَّ رؤية ملاَّصدرا هذه إن لم تكن عديمة الإشكالات، فإشكالاتها قليلة. كما يمكن تقديم إجابات على الإشكالات الموجَّهة لرؤيته، وأفضل التوضيحات تلك الأقرب إلى مضمون الآيات والروايات.

المصادر:

1. جعفرى، محمد (1391) نظريه فلسفى وحى از منظر فارابى وملاَّصدرا، [نظريَّة الوحي الفلسفيَّة من وجهة نظر الفارابي والملاَّصدرا]، قم: انتشارات مؤسَّسة الإمام الخميني.
2. ربانى گلپايگانى، على، (1391 الف)، وحى شناسى، [معرفة الوحي]، قم: نشر مؤسَّسة الإمام الصادق.
3. ربانى گلپايگانى، على، (1391 ب)، وحي نبوي [الوحي النبوي]، طهران مؤسَّسة الدراسات والفكر الإسلامي.
4. سبحاني، جعفر (1383). مدخل مسائل جديد در علم كلام [مدخل إلى المسائل الجديدة في علم الكلام]، (ج2). قم: نشر الإمام الصادق.
5. شريعتي، محمد تقى (1384)، وحى و نبوت در پرتو قرآن [الوحي والنبوة في ظل القرآن]، طهران ، مؤسَّسة الدراسات وتطوير العلوم الإنسانيَّة.
6. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم (1383)، شرح اصول الكافى، تصحيح محمد خواجوي، طهران نشر معهد العلوم الإنسانيَّة والدراسات الثقافيَّة.
7. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم (1378) المظاهر الإلهيَّة، تصحيح السيد جلال الدين الآشتياني، مشهد: جامعة مشهد.
8. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم(1375)، مجموعه رسائل فلسفى ملاَّ صدرا، تحقيق وتصحيح حامد ناجي اصفهاني، طهران: انتشارات حكمت.

[1]- سورة النجم، الآيات 3-10.

9. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم (1366) ، تفسير القرآن الكريم، قم: انتشارات بيدار.

10. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم (1361)، إيقاظ النائمين، طهران، المنظَّمة الإسلاميَّة للحكمة والفلسفة في ايران.

11. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم (1360) (الف)، أسرار الآيات، مقدِّمة وتصحيح محمد خواجوي، طهران، المنظَّمة الإسلاميَّة للحكمة والفلسفة في ايران.

12. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم (1360) (ب) ، الشواهد الربوبيَّة، مقدِّمة السيد جلال الدين الآشتياني، تعليقات الحكيم السبزواري، طهران: مركز النشر الجامعي.

13. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم (1354)، المبدأ والمعاد، مقدِّمة وتصحيح السيد جلال الدين الآشتياني، والسيد حسين نصر، طهران، مؤسَّسة الفلسفة في ايران.

14. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم(1417ق)، الشواهد الربوبيَّة، (ج1)، بيروت: مؤسَّسة التاريخ العربي.

15. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم(1302ق)، مجموعة الرسائل التسعه، قم: مكتبة المصطفوى.

16. صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم(1981م). الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة (ج٧،٨،٩) بيروت: دار احياء التراث

17. قائمى نيا، عليرضا (1381) وحى وافعال گفتارى [الوحي والأفعال القوليَّة]، (ج16). قم: نشر طه.

18. مكارم الشيرازى، ناصر (1377) ، پيام قرآن [رسالة القرآن]، قم، دار الكتب الإسلاميَّة.